الاتجاهات الحديثة
في دراسة التاريخ

للدكتور جواد علي
سكرتير المجمع العلمي العراقي
(بقية المنشور في العدد الماضي)

أما مذهب « المادية البيولوجية » فقد دعا أصحابه إلى تطبيق القوانين البيولوجية مثل نظرية داروين وما يتعلق بها على التاريخ وعلى المجتمعات البشرية باعتبار أنها نوع من الكائنات الحية وأنها خاضعة للقوانين العامة التي تخضع لها كل الموجودات . فبحثوا في التاريخ البشري على أنه وجه من أوجه النشوء والارتقاء وبقاء ما هو أصلح وبحثوا عن الوراثة عند الأمم ، كما فعل « فريدريك فون هلولد » « Friedrich von Hellwald » في بحثه عن التاريخ الثقافي وتطوره من أقدم عصوره حتى الآن . و « دورنك » « E Dühring » « ١٨٣٣ — ١٩٢١ م » وهو من الفلاسفة الذين لاقوا معارضة قوية بسبب آرائهم العنيدة في المادة ونكران الروح .

فعند هذا الفيلسوف « الإيجابي » أن « الشيء الحقيقي » هو الأشياء المرئية فقط ، وعلى ما تظهر للانسان ، وأن الأشياء كلها واحدة ، وأنها هي الواقع أو الحقيقة ، وما عدا ذلك فسخافات . وإن مايسمى بالروح ليس إلا أسطورة ، وأن « الحس » أو « الشعور » طاقة من طاقات المادة ، ولا توجد ما فوق « المادة » أي أمور أخرى ؛ وأن الطبيعة نفسها تشعر وتفكر بالشكل الذي عناه من المادة ، ولهذا يجب دراسة التاريخ على هذا الأساس . فرفض بهذه النظرية المذاهب المعروفة القائلة بما وراء الطبيعة والمذهب الرومانطيقي كذلك .

ومن هؤلاء أيضاً « أوتوسيك » « Otto seeck » في كتابه عن تدهور العالم القديم و « كومبلويتز » « gumplowieny » في مؤلفاته عن الاجتماع . و « هوستن ستيوارت شامبرلين » « H St Chamberlain » في كتابه المشهور عن أسس القرن التاسع عشر وقد بحث هذا في التاريخ متأثراً برأي أصحاب نظرية النشوء والارتقاء ، ففرق بين الشعوب « المبدعة » وهي الشعوب المبتكرة على رأيه ، وبين الشعوب المتمدنة والتي لم تفعل في نظره غير ذلك . وبنى تاريخه على أساس عنصري فمجد الآرية والشعوب الآرية وغنى بتفوق الأمم الأوربية على سائر أمم العالم .

ومن أصحاب هذه النظرية « فولتمن » « woltmann » وهو طبيب ومؤرخ وعالم من علماء علم الاجتماع . طبق نظرية « داروين » على التاريخ وعلم الاجتماع وخرج بتأثير هذه النظرية على أن الشعوب غير متساوية في الكفايات وأن الشعوب التمثالية هي الشعوب المنتجة والمبتكرة في هذا العالم . وكذلك « نوفيزو » « novicon » و « Hartwig » وقد حاول هؤلاء مندفعين بالنظرية الداروينية وبما شاهدوه من تقدم عظيم في أوربا وتأخر في الشرق إلى تطبيق هذه النظرية على التاريخ وفي السياسة .

وقد بحث في هذا الموضوع وبصورة أوضح وأعمق جماعة من أصحاب المذهب « الواحدي » « moniamus » القائل بأن أصل كل الأشياء واحد وهو « المادة » أو « الروح » ، ومن هؤلاء « أوستوالد » « Ostwald » « ١٨٥٣ — ١٩٣٢ م » وهو أستاذ من أساتذة الكيمياء حاول تطبيق مبدأ « الطاقة » حتى على العلوم الاجتماعية ، فألف في الثقافة وفي علم الاجتماع ؛ والعالم « كولد شايد » « golds-cheid » صاحب نظرية « الاقتصادية البشرية » وقد بحث في « المادية » على أنها طاقة من الطاقات التي يتأثر بها التطور البشري .

إن أصحاب هذه النظرية وإن كانوا قد تأثروا بنظرية « داروين » وبالآراء المادية إلى حد كبير ؛ غير أنهم لم ينكروا عموماً وجود « الروح » . وقد فسروا « الروح » تفسيراً يلائم النظريات الطبيعية ، كما أنهم فسروا تأثير القوة الموجدة أو « الله » تفسيراً لا يدعو إلى مذهب الإلحاد أو نكران الخالق نكراناً باتاً « Atheismus » .

والمذهب الآخر من المذاهب المادية في تفسير التاريخ هو مذهب « المادية الاقتصادية » أو « الوجهة المادية في تفسير التاريخ » فكل العوامل المادية المؤثرة في التاريخ البشري هي

ذات طابع اقتصادى ، وهذه العوامل الاقتصادية تؤثر فى حياة الأفراد والجماعات والحكومات . وحتى فى العلوم والأديان . وما الحياة الإنسانية والظاهر الثقافية على رأى هؤلاء سوى مظهر من مظاهر التقلبات الاقتصادية ، فالتاريخ إذن هو تاريخ اقتصادى ، والعامل الاقتصادى إذن هو العامل الفعّال فى تغيير مجرى التاريخ وتكوين التاريخ .

ويلتقى بهذا المذهب التاريخى مذهب آخر يقال له « المذهب الإثباتى فى التاريخ » وهو قريب من المذهب السادى وإن ظهر لنا أن المبادىء مختلفة تمام الإختلاف . ومن رجال هذا المذهب الفيلسوف الفرنسى « أوكست كونت » « Auguste Comte » يرى أكثر رجال هذا المذهب أن التاريخ البشرى مر فى مراحل حتى بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، وإن من الممكن تمييز ثلاث مراحل مهمة مرت بها هذه البشرية وهى :

١ — مرحلة إرجاع كل الأشياء إلى أسباب وعوامل روحية وقوى غير منظورة مثل السحر والقوى الخارقة والآلهة والقوى التى لا يمكن رؤيتها .

٢ — مرحلة ما وراء الطبيعة « metaphysic » أو مرحلة الأفكار المجردة ، وترجع فيها الأسباب والمسببات والوجود وما يحدث إلى عامل مؤثر .

٣ — المرحلة الثالثة وهى مرحلة « الفكر الإيجابى » وفى هذه المرحلة بدأ الإنسان يفكر فى ترك البحث فى العلل النهائية غير المنظورة إلى البحث بالطرق الإيجابية وفق الطرق الطبيعية وقوانين التجارب العلمية .

وقد تطورت أكثر العلوم وسارت سيراً إيجابياً إلا العلوم التى تبحث عن المجتمع والمجتمعات البشرية فإنها لا تزال فى حاجة إلى إيجاد قوانين ودساتير كالدساتير الطبيعية يتمكن بواسطتها عالم الاجتماع أو التاريخ من الحصول فى النهاية على نتائج إيجابية ثابتة .

وقد وجدت آراء « كونت » رواجاً كبيراً بين الجماهير . وإن لم يكن ذلك التأثير تأثيراً مباشراً بل كان بواسطة كتابات الكتاب الآخرين أمثال « جون ستيوارت ميل » و « هربرت سبنسر » و « هنرى توماس بكل » و « إميل ليتريه » « Emil Littré » و « هنرى تين » « Henr Taine » وغيرهم . لقد وجه هؤلاء أنظار قرائهم إلى دراسة العلوم الاجتماعية وحالات الشعوب والتاريخ الثقافى وما إلى ذلك وساعدوا على نشر آرائه ولا سيما « بكل » « Buckle » فى كتابه القيم الذى ظهر بين سنة ١٨٥٧ — ١٨٦١ وهو « تاريخ المدنية فى انكلترة » .

وقد أشار إلى ضرورة دراسة نفسيات الجماعات والعوامل الروحية التى تؤثر فى التطور الثقافى ، ولابد لمعرفة ذلك من الاستعانة بالإحصائيات التى تتعلق بالجماعات . وبواسطة هذه الدراسات التى تستند على الطرق التجريبية نتمكن من رفع « التاريخ » إلى درجة « علم » من العلوم . أما الاستعانة بالحوادث الفردية وبالوقائع المدونة فإن ذلك لا يرفع من التاريخ شيئاً ، ولا يمكن أن يصل به إلى منزلة العلوم .

وقد تطرق إلى هذا البحث بحث الاستعانة بالإحصائيات لتكوين « علم التاريخ الناطق » عالم فرنسى هو « هنرى بوردو » « Henri Bourdeau » فى كتابه الذى ظهر سنة ١٨٨٨ وعنوانه التاريخ والمؤرخون L ' histoire et les historiens حيث نادى بوجوب تدوين التاريخ على صورة أرقام وإحصائيات ناطقة تتكلم للناس بصراحة وبدون خجل ، مثل المعادلات الرياضية أو الكيماوية . أما وصف الحوادث وتدوينها على رأيه ، فذلك من وظائف الآداب .

ومن الذين نحوا منحى « كونت » فى ألمانيا المؤرخ الألمانى « كارل لامبرشت » « Karl Lamprecht » الذى سار على أكثر الأسس التى وضعها ذلك الفيلسوف الفرنسى وطبقها فى التاريخ الاجتماعى . وقد أشاد بالقيم التاريخية للجماعات وبأنها هى الموجهة للتاريخ متجاهلا بذلك « عامل الفرد » فى التاريخ وتأثير الأفراد فى الجماعات . وقد أدى ذلك إلى احتدام النزاع بين المؤرخين فى موضوع مهم جداً : هل التاريخ من صنع الأفراد أم من صنع الجماعات ؟ وأيهما أقوى أثراً فى سير الحوادث البشرية ؟ فكان من تأثير ذلك ظهور رسالة طريفة فى موضوع « أهمية الشخصية فى التاريخ بالنظر إلى مقدمة بلوشى فى تاريخ اليونان » .

وقد اصطدم « لامبرشت » بأكثر المؤرخين من أتباع